المحاضرة الاولى

حروب التحرير العربية – مرحلة الاستكشاف

نستطيع أن نقول إن تحرير المغرب العربي مرّ بمرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى، مرحلة الاستكشاف (22 ـ 50هـ/ 643 ـ 670م).

والمرحلة الثاني، مرحلة التحرير المنظمة (50 ـ 90هـ/ 670 ـ 709م).

1 ـ مرحلة الاستكشاف (22 ـ 50هـ/ 643 ـ 670م)

وتبدأ بجهود عمرو بن العاص والي مصر، وتنتهي بتولية عُقبة بن نافع الفهري ولاية المغرب العربي، فقد كان من الطبيعي أن يتوجه عمرو بن العاص بعد إتمام تحرير مصر جهة الغرب لتحقيق هدفين:

الأول، مرحلي، لحرمان الروم البيزنطيين من قاعدتَي برقة وطرابلس، وتأمين حدود مصر الغربية فبرقة كانت تُعتبر امتداداً لمصر، وإقليماً متمماً لها فهي تجاور لوبيا ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية[1]، وكان إقليم برقة وإقليم طرابلس قد انفصلا عن ولاية أفريقية البيزنطية منذ عهد الإمبراطور موريس، 582 ـ 602م، وأصبحا إقليمين تابعين لمصر[2]، وهذا يعني أن تحرير برقة وطرابلس كان ضرورة «استراتيجية» عسكرية لحماية

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة لجنة البيان، مصر، ص: 229. وينظر: سالم: 2/ 141.

(2) مؤنس: 50.

حدود مصر الغربية ضدّ ما قد يتهددها من خطر المستعمرين الروم البيزنطيين في أفريقية[3].

والهدف الثاني، استراتيجي لتحرير كامل المغرب العربي من المستعمرين الروم.

ورغم ما يشير إليه بعض المؤرخين من أن عمرو بن العاص أرسل عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة من الفرسان تمكّنت من تحرير برقة وزويلة[4]، فيبدو أن الإشارة هنا إلى الحملات الاستطلاعية التي قادها عقبة بن نافع بأتجاه هذه المناطق وجاس خلالها مواطن قبائل لوَاتة وغيرها بحيث كان تقريره الذي رفع إلى القائد الأعلى مطمْئِناً ومشجّعاً للتوغل غرباً[5].

لذا قاد عمرو بن العاص القوات العربية سنة 21هـ/ 642م[6] وزحف نحو مدينة برقة التي كانت قاعدة لإقليم واسع يحمل هذا الاسم، أو يُسمّى بتسميته القديمة: إقليم أنطابلس[7]، فدخلها دون صعوبة تُذكر، فصالح أهلها على مبلغ من المال مقداره ثلاثة عشر ألف دينار[8]، كانوا يبعثون بها إلى والي مصر «من غير أن يأتيهم بِحاثٌ أو مستحث.»[9].

---

(3) سعد زغلول: 1/ 131.

(4) ابن عذاري: 1/ 2 طبعة دوزي، نقلاً عنه: فتح العرب المغرب، حسين مؤنس: 59. ابن أبي دينار: المؤنس: 29.
والنص في الطبعة الثانية من كتاب ابن عذاري: 1/ 8 «. . . إلى لوبية وأفريقية فافتتحهما» وينظر: سعد زغلول: 1/ 135 والهامش رقم (19).

(5) مؤنس: 53 و54.

(6) وقيل في سنة 22هـ.

(7) ابن عبد الحكم: 229. البلاذري: فتوح البلدان: 225، مطبعة السعادة. ابن الأثير: الكامل: 3/ 26، طبعة دار المعارف. ابن عذاري: 1/ 8.

(8) ابن عبد الحكم: 229. البلاذري: 225. ابن الأثير: 3/ 26.

(9) البلاذري: 226. وينظر: ابن عبد الحكم: 230.

ومن برقة تَجهَّز عمرو بن العاص لتحرير مدينة طرابلس، وتطلبت الضرورة العسكرية تجهيز قوّتين[10]، قوة رئيسية اتخذت الطريق الساحلي وهدفها مدينة طرابلس وما يليها من المدن الساحلية، وقوّة فرعية وجهتها المناطق الصحراوية الجنوبية أُنيطت قيادتها إلى عقبة بن نافع الفهري[11]، لتأمين المناطق الداخلية حتى زوِيلة، ولمنعها من القيام بأي عمل من شأنه أن يُعيق تقدّم القوات الساحلية أو يهدد خطوط مواصلاتها.

وهكذا سارت العمليات العسكرية في المناطق الساحلية والمناطق الجنوبية متزامنة مع بعضها، ففي الوقت الذي تمكّن به عُقْبة من تحرير مناطق فَزّان وزويلة في الجنوب، كان عمرو بن العاص قد بدأ بتحرير أولى مدن إقليم طرابلس فبدأ بمدينة أجدابية[12]، ثم مدينة سِرْت، ثم لبدة، وأشرف على مدينة طرابلس[13] وكانت مدينة محصَّنة ومسوَّرة من جهاتها الثلاث بسور منيع[14]، فيما عدا الجهة الشمالية المطلة على البحر المتوسط[15]. ولمّا لم يتمكن ابن العاص من دخولها فقد اكتفى بمحاصرتها مدة دون طائل، حتى تمكّنت قوّة من الفرسان كانت تستطلع السور من الجهة الغربية من اكتشاف فتحة تسببها مياه الجَزْر، يسمح لدخول القوات منها[16]، ومن هذا المكان تسللت القوات العربية واجتاحت تحصينات الروم

---

(10) مؤنس: 57.

(11) ابن عبد الحكم: 230. وينظر: سعد زغلول: 1/ 133. سالم: 2/ 144.

(12) صالحها عمرو بن العاص على مبلغ مقداره خمسة آلاف دينار، ينظر: الحموي: معجم البلدان: 1/ 100.

(13) في فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم: 230: «فنزل القبة التي على الشرف من شرقيّها فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء» وعن مدلول هذا المكان، ينظر: الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 48. سعد زغلول: 1/ 137، الهامش رقم: 29.

(14) الاستبصار: 110. وينظر: الزاوي: 49.

(15) ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 25.

(16) ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 25، وهما متفقان على رواية مفادها: أن رجلاً من بني مدلج خرج مع سبعة نفر من أصحابه للصيد وسلكوا غرب المدينة فلمّا رجعوا =

وفاجئتها بهجوم صاعق أواخر سنة 22هـ/ 643م فسيطرت على مقاليد الأمور في المدينة بعد أن ولّت حامية الروم البيزنطية بما تيسّر لها من السفن[17].

وكان ابن العاص قد أرسل بشر بن أبي أرطأة أثناء حِصاره مدينة طرابلس على رأس قوّة من الفرسان أخضعت جبل نفُوسَة[18]، وتقدمت نحو ودان فأمّن أهلها سنة 23هـ/ 643م[19]، وكان الغرض من هذه الحملة القضاء على أي محاولة من جانب قبائل نفوسة لنجدة أهل طرابلس، وفي الوقت نفسه لتأمين تحريرهم للساحل، على نحو ما فعل عمرو عند دخوله برقة، إذ ضَمِن خضوع زويلة وفَزّان للقوّات العربية خشية أن يقوم سكانها بأعمال مضادة قد تسبب للقوات الكثير من العرقلة والمتاعب.

وأعقب ابن العاص تحرير طرابلس بدخول مدينة سبرت (صبرة) وتحريرها من فلول الروم البيزنطية[20].

وهكذا أنجز عمرو بن العاص تحرير المناطق الساحلية حتى مدينة سبرت (صبرة) والمناطق الصحراوية الجنوبية: فزّان وزويلة وودان، ولما كانت حروب التحرير العربية في بلاد مصر والمغرب تسير حسب خطّة مركزية متّفق عليها ومخطّط لها منذ البداية، فقد استأذن عمرو بن العاص

= اشتدّ عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر فرأى المدلجي وأصحابه مسلكاً بين البحر والبلد، فدخلوا منه وكَبّروا، فلم يكن للروم ملجأ إلاّ سفنهم، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل المدينة. . .».

(17) ابن عبد الحكم: 231. البلاذري: 227. ابن عذاري: 1/ 8. ابن الأثير: 3/ 26. وينظر: أحمد النائب: المنهل العذب: 22.

(18) ابن أبي دينار: 26.

(19) الزاوي: 61. مؤنس: 65. وينظر: سعد زغلول: 141 والهامش رقم (45).

(20) كانت مدينة (صبرة) مدينة حصينة لا تقل حصانتها عن حصانة مدينة طرابلس ولكي يفاجِئ ابن العاص حاميتَها فقد جرّد خَيْلاً كثيفة بعد تحريره طرابلس مباشرة وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا وفتحوا أبواب مدينتهم، فدخلتها القوات العربية على حين غفلة من حاميتها وتمكّنت من تطهيرها من فلول الروم البيزنطيين، ينظر: ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 26. أحمد النائب: 22.

الخليفة عمرَ بنَ الخطّاب (رض) في التقدم نحو ولاية أفريقية وكتب إليه: «إن الله فتح علينا طرابلس، وليس بيننا وبين أفريقية إلاّ تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يده فعل[21]»، ويضيف آبن عذاري نصّاً غاية في الأهمية، أَوقف من خلاله عمرو بن العاص الخليفة عمرَ بنَ الخطاب (رض) على أحوال البلاد بقوله: «وملوك كثير، وأهلها في عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل[22]».

وإخبار آبن العاص بأحوال البلاد بعد إقليم طرابلس، وما أُحيط به الخليفة من معلومات أخرى عن طبيعة البلاد السياسية والاجتماعية دفعت دار الخلافة إلى التريّث، وتأجيل التقدّم فيما ما وراء إقليم طرابلس والاكتفاء بما حققته القوات العربية من تأمين حدود مصر الغربية[23].

ولا خلاف فإن عمرو بن العاص لا يمكن أن يتقدم إلى قلب المغرب العربي والروم البيزنطيون شوكة في ظهره[24]، إضافة إلى أن تحرير المغرب العربي يحتاج إلى إمدادات متواصلة، وجهود كثيفة، وقاعدة أمينة تحمي تلك الإمدادات وتؤمّن لها احتياجاتها المتعددة، وهذا ما لم يتوفر خلال هذه الفترة، فمصر لم تكن قد استوثقت أمورها تماماً للقوات العربية، إذ لا زال

---

(21) ابن عبد الحكم: 232. وينظر: البلاذري: 227.

(22) البيان المغرب: 1/ 8.

(23) وكان رد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كما دَوّنه ابن عبد الحكم: 232: «. . . لا، إنها ليست أفريقية، ولكنها المفرقة، غَادِرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت.» وفي رواية أخرى: «أفريقية المفرقة المفرقة ـ ثلاث مرات ـ لا أوجّه إليها أحداً ما قلت عيني الماء.» وروى البلاذري: كتب عمر بن الخطاب (رض) ينهاهُ عنها ويقول: «ما هي بأفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها. . .» فتوح: 227.
وهذه الروايات وغيرها مصطنعة لا أساس لها من الصحة وضعها المتأخرون من الرواة نتيجة الصعوبات التي واجهها العرب في تحرير المغرب العربي على امتداد أكثر من سبعين سنة.

(24) سعد زغلول: 1/ 145.

خطر الروم البيزنطيين قائماً محاولين استعادة نفوذهم الغابر[25]، لأجل هذه الأسباب وغيرها، عاد عمرو بن العاص إلى مصر ليشرف على تنظيم إدارتها مما يجعلها جديرة بقيادة حروب التحرير العربية في بلاد المغرب، بعد أن خلف في برقة حامية عسكرية على رأسها عقبة بن نافع الفهري[26].

وفي سنة 23هـ/ 643م توفي الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وتولّى الخلافة من بعده عثمان بن عفان (رض). والذي يُفهَم من الرواية التاريخية أن عمرو بن العاص طلب من الخليفة عثمان بن عفان (رض) تنحية عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن إمارة الصعيد دون سبب معقول[27]، وانتهى الحوار بينهما إلى إعفاء عمرو بن العاص من منصبه، وتعيين عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر سنة 25هـ/ 945م[28].

وأتبع ابن أبي سرح في البداية سياسة تقوم في الأساس على بعث السرايا وباتجاهات مختلفة[29]، وكانت تلك السرايا تجوب أطراف أفريقية وتعود إلى قاعدة انطلاقها في مدينة برقة، ولم يكن هدفها الغنائم والسبي كما يُفهَم من بعض الروايات، وإنما كان هدفها الحقيقي الاستطلاع، وجسّ مواطن العدوّ، وتتبع أخباره، ومعرفة قواه، وما يملكه من عدة وعدد، وعلى نتائج هذه الحملات الاستطلاعية. كان يقدَّر ما يمكن أن تلقاه القوات العربية من المقاومة، وعلى أساسها كانت تُعَد خطة الهجوم[30].

ونظراً للتقارير المشجعة التي انتهت إليها تلك الحملات، قرر ابن أبي سرح استشارة الخليفة عثمان بن عفان (رض) لاستئناف حروب التحرير في

---

(25) ابن عبد الحكم: 235 ـ 237. وينظر: زغلول: 1/ 143.
(26) سالم: 2/ 152.
(27) ينظر: ابن عبد الحكم: 233.
(28) وقيل سنة 24هـ.
(29) ابن الأثير: 3/ 42.
(30) سعد زغلول: 1/ 124.

https://www.aljazeera.net/blogs/2023/10/5/%D9%81%D8%AA%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7-%D9%83%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D8%B9%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE

المحاضرة الثانية

مرحلة التحرير المنظم

2 ـ مرحلة التحرير المنظَّم (50 ـ 90هـ/ 670 ـ 709م)

كانت ولاية عقبة بن نافع الفهري[98] للمغرب العربي سنة 50هـ/ 670م[99] حدّاً فاصلاً بين عهدين:

الأول: بدأ بجهود عمرو بن العاص سنة 22هـ/ 643م وانتهى بولاية معاوية بن حديج السكوني سنة 47هـ/ 667م وهي الفترة التي أُطلق عليها عصر أو فترة الاستكشاف، فرغم الانتصارات التي حققتها القوات العربية حتى ذلك الوقت فإن نتائجها لم تكن لتدوم طويلاً بل كانت تلك النتائج مرهونة بوجود القوات العربية في بلاد المغرب، فإذا ما عادت إلى برقة أو مصر ارتدّت معظم المناطق المحررة عن الولاء والطاعة ولهذا اعتبرت الحملات العسكرية التي توالت على بلاد المغرب مجرّد حملات استطلاعية، واسعة المدى، قد تطول أو تقصر مُدّتها، حسب الأهداف المحدّدة لها.

واختيار عقبة بن نافع لهذه الولاية وفي هذا الوقت بالذات، لم يكن دون معرفة تامة بشخصيته القيادية، وجهوده الحربية على مدى فترة تزيد على الربع قرن من الزمان، ذلك أن دار الخلافة في المشرق، رسمت له خُطّة

---

(97) ينظر: حسين مؤنس: 127.

(98) عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري القرشي وُلِد قبل هجرة الرسول (ص) بسنةٍ واحدة أي سنة 621م، ينظر: الباجي: الخلاصة النقية، طبعة تونس، 1283هـ، ص: 5. وقد وَهِمَ ابن عذاري: 1/ 19 حيث جعل مولده قبل وفاة الرسول (ص) بسنة واحدة.

(99) وَهِمَ بعض المؤرخين عندما أرّخوا ولايته الأولى بسنة 46هـ، ينظر: مثلاً: ابن عبد الحكم: 262. البكري: 13.

عمل ترمي إلى تحقيق أهداف مركزية تقوم أساساً على تثبيت أقدام العرب في المغرب العربي من خلال تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون قاعدة لتجمّع القوات العربية، ومركزاً لأنطلاقها وملجأ لها عند الضرورة، وهذا العمل بحد ذاته وسيلة من أجل تحقيق الهدف الأسمى وهو تحرير المغرب العربي من المستعمرين الروم البيزنطيين، ونشر الإسلام[100].

ولكي يتمكن عقبة من إنجاز مهماته وتحقيق أهدافه، زوّد بعشرة آلاف مقاتل[101]، إضافة إلى القوات المرابطة في مدينة برقة، والتي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين البربر الذين حَسُن إسلامهم وتوثّقت طاعتهم[102].

وزحفت هذه القوات الكبيرة بأتجاه المغرب، فأعادت إخضاع قفصة وقسطيلية والمناطق الأخرى التي تمّ إخضاعها سنة 46هـ خلال ولاية معاوية بن حديج، ويبدو أن عقبة بن نافع عاقب أهل هذه المناطق عقاباً صارماً لنكثهم العهد، وخروجهم عن الطاعة[103].

ومن إقليم قسطيلية زحف عقبة راجعاً إلى إقليم الهضبة الوسطى[104]، وفي قمونية[105]، وقف على جهود سَلَفه معاوية بن حديج في بناء معسكر القرن، وبدأ باختيار المكان المناسب لقيام أول مدينة عربية إسلامية. في بلاد المغرب، مشيراً إلى ضرورة قيام مثل هذه المدينة بقوله: «إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون

---

(100) سعد زغلول: 1/ 175 و176. لقبال موسى: المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة 1969، ص: 33.
(101) البلاذري: 230. ابن عذاري: 1/ 19.
(102) ابن الأثير: 3/ 465.
(103) ابن الأثير: 3/ 465. ابن عذاري: 1/ 19. الاستبصار: 113.
(104) لقبال موسى: 35.
(105) ينظر: مؤنس: 14، دبوز: 2 ـ 28.

عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر . . .»[106] ويكون بها جيش المسلمين وذويهم وأموالهم ليأمنوا من تمردات أهل البلاد وخروجهم عن الطاعة[107].

وهكذا شرع عقبة بن نافع ببناء مدينة القيروان سنة 50هـ/ 670م[108] في موضع وسط بعيدة عن الساحل كي تكون في مأمن من هجمات الأسطول البيزنطي، وغير متوغلة في العمق خشية من تحركات القبائل البربرية وقريبة من السبخة لتتمكن الإبل من الرعي بأمان[109].

وقد علّق «كودل» على اختيار عقبة هذا الموضع بقوله: «وكان اختيار المكان موفّقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن وُلاة المغرب، ومن خَلَفهم من الحُكام المستقلّين أقاموا بها زماناً طويلاً، ولم ينتقلوا عنها إلاّ حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك. كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية، إذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله، يستطيع أن يرى العدوّ من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر، وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتوحة أمامه، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعالي الهضاب. . . ومن أعالي الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها، فيتيسر له حُكمها إذا كانت لديه القوة الكافية لذلك. كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع وبالغارات السريعة والحراسة الدائمة»[110].

وكان موضع المدينة مكاناً كثير الأشجار، ومأوى لأنواع مختلفة من

---

(106) ابن عذاري: 1/ 19. وينظر: ابن الأثير: 3/ 465.
(107) ابن الأثير: 3/ 465.
(108) وقال صاحب الاستبصار: 113. أُسّست سنة 47هـ، وقال ابن عذاري: 1/ 20: سنة 51هـ.
(109) ابن عذاري: 1/ 19 و20. وينظر: المالكي: 1/ 6. الدباغ: 1/ 9.
(110) حسين مؤنس: 143 و144.

الحيوانات والزواحف[111]، وكان من الطبيعي أن تُقطَع الأشجار للاستفادة من أخشابها وتُحرق الأعشاب والأدغال لتنظيف المكان وتطهيره من الحيوانات المستوطنة فيه[112].

وحسب طريقة العرب في بناء المدن، فقد ابتدأ ببناء المسجد الجامع ثم دار الإمارة[113]، ثم قُسّمت الأرض المحيطة بهما على المقاتلين الذين اختطّوا دُورهم كل على قدرته[114].

ويبدو أن تحديد القِبلة بالشكل الدقيق كانت من الأمور التي شغلت عقبة بن نافع وأهمَّته لأيام قبل تحديدها، لأن ضبط قبلة أول مسجد أُقيم للناس في بلاد المغرب العربي من الضرورة بمكان، ولأنه على أساسها تُحدَّد قِبلةُ مساجد البلاد[115]، ولا عبرة بعد ذلك لما يذكره المؤرخين من أن تحديد القبلة كان بناء على كرامة من كرامات عقبة بن نافع[116]، إذ كشفت الدراسات الحديثة بأن محراب مسجد القيروان الذي بناه عقبة ينحرف قليلاً عن الاتجاه الصحيح[117].

وكانت مدينة القيروان في البداية بسيطة البناء، مادته الآجُر المطبوخ

---

(111) ابن عبد الحكم: 264. البلاذري: 230. الطبري: 5/ 240. الاستبصار: 114.

(112) الواقدي: فتوح أفريقية: 4. ابن الأثير: أسد الغابة: 3/ 421. ابن عذاري: 1/ 20.

(113) هناك خلاف بين المؤرخين حول بناء المسجد الجامع، ودار الإمارة، وأيهما بُني أوّلاً، ينظر مثلاً: الدباغ: 1/ 10. ابن الأثير: 3/ 466. ابن عذاري: 1/ 20. ابن خلدون: 3/ 10.

(114) سعد زغلول: 1/ 186.

(115) الدباغ: 1/ 10. الاستبصار: 114. ابن عذاري: 1/ 20.

(116) قال الدباغ: اختلفوا بالقبلة فأقاموا أياماً ينظرون مطالع الشمس ومغاربها فاغتمَّ لذلك عقبة ودعا الله «فأتاه آتٍ في منامه وقال له: إذا أصبحت فاحمل لواءك على عاتقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المؤمنين غيرك فالموضع الذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مُصَلاّك وهو محراب مسجدك...» وينظر أيضاً: ابن عذاري: 1/ 20 و21. السلاوي: 1/ 79.

(117) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، الإسكندرية، 1963م، ص: 22. وينظر: سعد زغلول: 1/ 186.

لتَوَفُّر مادة الطين[118]، وعُمرت بمرور الزمن بأنواع الأبنية والمنشآت، وشد الناس إليها الرحال فسكنوها من كل مكان، وأتسعت الأسواق والمرافق. ودامت حركة البناء فيها فترة تقارب الخمس سنوات حتى أكتملت عمارتها سنة 55هـ/ 674م[119]، ولأجل حماية المدينة ومرافقها من الغارات المفاجئة فقد لُفَّت عمائر المدينة ومنشآتها بِسُور من اللَّبن والطين ظل قائماً حتى زمن الأغالبة فهدمه زيادة الله، وأقام عليها سُوراً من التراب[120].

وقد اختلف المؤرخون في تقدير مساحة المدينة، فحددها البعض بثلاثة آلاف وستمائة (باع)[121] وحددها آخرون بثلاثة عشر وستمائة (ذراع)[122]، ويقول سعد زغلول: «والمساحة الأولى التي تُقدَّر بحوالى (5800م^2) معقولة بالنسبة لخطة الأولى، وإقامة الأسوار، ووسائل الدفاع، أي بالنسبة للمدينة العسكرية، أما المساحة الثانية التي تُقدّر بحوالى (7000م^2) فهي معقولة بالنسبة لمساكن العسكر والقبائل، ومن أنضاف إليهم من أهل البلاد، وعلى ذلك يمكن القول إن المدينة العسكرية الأصلية المسوَّرة حيث المسجد الجامع ودار الإمارة والذخائر - كان محيطها (3600) باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها في محيط بلغ 13,600 ذراع»[123].

وكان قيام مدينة القيروان حدثاً هاماً في تاريخ أفريقية خاصة والمغرب العربي عامة، لأنها أصبحت نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب العربي، كما كانت مدينة الفسطاط من قبلها نواة لولاية مصر العربية[124]، وحققت

---

(118) المقدسي: 225. لقبال موسى: 35.
(119) ابن الأثير: 3/ 366.
(120) سالم: 2/ 208.
(121) ابن الأثير: 3/ 466. ابن خلدون: 3/ 10.
(122) ابن عذاري: 1/ 21. وينظر: سالم: 2/ 207.
(123) تاريخ المغرب العربي: 1/ 186 و167. وينظر: سالم: 2/ 207.
(124) حسين مؤنس: 146. لقبال موسى: 39.

النتائج التي أُريدَ من بنائها، فأصبحت قاعدة تنطلق منها القوات العربية، ومقراً للوُلاة، ومسكناً للكثير من القبائل العربية، وحذت بعض القبائل العربية البربرية حذو إخوانهم المشارقة، فجاوروا المدينة الجديدة، ودخلوا في دعوة الإسلام، وتعلّموا اللغة العربية، ووقفوا على أصول الشريعة الإسلامية وما يجب على المسلم من واجبات، وما له من حقوق.

وكان دور القيروان واضحاً وجليّاً في نشر الإسلام والتعريب بين قبائل البربر، فشيوخها من أبناء الصحابة والتابعين كانوا خير دعاة وخير معين[125]، تمكّنوا بعد فترة وجيزة من نقل أهل المغرب العربي من حال إلى حال، نقلوهم من حال المُعادي والمتربص بالسلطة العربية، إلى صف المشارك في حروب التحرير والفاعل في تقرير السياسة العربية بهدف تحرير البلاد من المستعمرين البيزنطيين.

ولا يخفى بعد هذا ما للآثار المعنوية من أهمية في قيام المدينة، فقد قوي جنان المجاهدين، وٱطمأنت نفوسهم في الاستقرار والسُكنى، واتخاذ الدور والمساجد فيها، وزادتهم عزيمة وإصراراً لتحرير كامل التراب العربي، وطرد الروم وملاحقة فلولهم واجتثاث أصولهم. في الوقت ذاته كان لصدى قيام هذه المدينة آثاره السلبية على الغزاة وحلفائهم، فقد كانت أخبار بنائها تزيد من عوامل الانهيار النفسي لديهم، وتعمّق من هذه الخلافات بين صفوفهم.

وقد عبّر ٱبن الأثير عن مجمل هذه النتائج بالمقولة الآتية: «. . ودخل كثير من البربر في الإسلام، وٱتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمِنوا، وٱطمأنوا على المقام فثبت الإسلام بها»[126].

---

(125) ينظر فيما بعد الفصل الموسوم: «انتشار الإسلام والعروبة».

(126) الكامل: 3/ 466. وينظر أسد الغابة: 3/ 184.

https://www.aljazeera.net/blogs/2020/8/13/%D8%B9%D9%82%D8%A8%D8%A9-%D8%A8%D9%86-%D9%86%D8%A7%D9%81%D8%B9-%D9%85%D9%86-%D9%82%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%AA%D9%88%D8%AD-%D9%81%D9%8A-%D8%B4%D9%85%D8%A7%D9%84

المحاضرة الثالثة

ولاية حسان ابن النعمان الغساني على المغرب العربي

وحسَّان بن النعمان الغساني، أحد القادة المشهورين، وأول والٍ من بلاد الشام، لم يسبق له المشاركة في حروب التحرير بالمغرب، وكان الولاة قبله قد تدرّجوا في المناصب الإدارية والعسكرية في مصر أو المغرب، حتى ارتقوا منصب الولاية وقيادة الجيوش العربية فيها.

دخل حسَّان بن النعمان سنة 74هـ/ 693م[229] على رأس جيش، قِيل إنه لم يدخل المغرب قبله جيش بعدده وعدَّته[230]، وتضخّم هذا الجيش بمن انضم إليه من العرب البربر والمتطوّعة حتى بلغ الأربعين ألف مقاتل[231]، وجعل حسَّانُ على مقدمته محمد بنَ أبي بكير، وهلالا بنَ ثروان اللواتي[232]، ووجود قائد من البربر - هلال بن ثروان اللواتي - على رأس

= وفيه: «. . . وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى أفريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوَّها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية، وأغاروا على برقة، فأصابوا منها سبياً كثيراً، وقتلوا ونهبوا. . . أمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه، وكان الروم خلقاً كثيراً، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع، وباشر القتال. . . وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهير، وأصحابه ولم ينجُ منهم أحد.».

(226) السلاوي: 1/ 92.

(227) ابن عبد الحكم: 269. ابن الأثير: 4/ 269. حيث تاريخ حملته في سنة 74هـ. وفي الذباغ: 1/ 60 «سنة 69هـ». وابن عذاري: 1/ 34، ويجعل ولايته سنة 78هـ.

(228) تنظر مقولة الخليفة عبد الملك في حسان بن النعمان في الرقيق القيرواني: 54.

(229) ابن الأثير: 4/ 369.

(230) ابن الأثير: 4/ 369. ابن عذاري: 1/ 34. السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية: 2/ 532.

(231) ابن عذاري: 1/ 34. السلاوي: 1/ 92.

(232) ابن عبد الحكم: 270، ويضيف أيضاً: زهير بن قيس البلوي، خطأ.

هذه القوة الكبيرة، يعني قبل كل شيء رسوخ مبادئ الإسلام والعروبة لدى السكان المحليين الذين بدأوا ومنذ وقت مبكر يشاركون القوات العربية، مشاركة فاعلة في تحرير البلاد من الغزاة البيزنطيين وتدرجوا حتى تسلّم بعضهم المناصب القيادية، والمشاركة في تحمّل المسؤولية.

وكانت خطّةُ حسّان العسكرية تهدف إلى تحقيق مهمتين أساسيتين.

الأولى: القضاء على قوة الروم، وضرب معاقلهم المهمة.

والثانية: تطويع البربر الذين تجمعوا تحت قيادة الكاهنة ملكة جبال (أوراس).

وأدرك حسّان بن النعمان أن القضاء على قوة الروم وكسر شوكتهم يتطلب تحرير مدينة قرطاجنة من قبضتهم، تلك المدينة التي طالما تركتها القوات العربية خلف ظهرها دونما استئصال تام لأصل الداء الذي كان يثير في بلاد المغرب بذور الفرقة والانشقاق.

لذا كان قرار حسّان بن النعمان صائباً عندما قصد أول ما قصد اجتثاث معاقل الروم البيزنطيين، فزحف نحو عاصمتهم ورمز قوتهم مدينة قرطاجنة فهاجمها في سنة 74هـ/ 694م، وحاصرها حصاراً شديداً، أعجز قوات الروم عن الصمود، فدخلها بعد أن هرب معظم قواتها باتجاه جزر البحر المتوسط[233]، فأمّن حسان من استسلم من أهلها[234]، ونظم شؤون المدينة وخلف فيها حامية عربية[235]. واتجه بقوّاته الرئيسية صوب مدينتَيْ صطفورة وبنزرت حيث تجمعت فيهما قوات كبيرة للروم والبربر، وتمكّن حسّان ـ بعد

---

(233) هربوا إلى جزيرة صقلية والأندلس.

(234) تختلف الروايات التاريخية في كيفية دخول مدينة قرطاجنة، فقد ذكر أنه دخلها صلحاً وقيل دخلها عنوة، وقيل إن الروم خدعوا حسّان فطلبوا منه الأمان ثم استغلوا الفرصة فهربوا بأموالهم وذويهم بمراكبهم إلى جزر البحر المتوسط. ينظر: البكري: 237. رحلة التجاني: 10. ابن عبد الحكم: 270. الدباغ: 1/ 60. السلاوي: 1/ 92.

(235) البكري: 37.

قتال شديد - من الانتصار عليهم وملاحقة فلولهم، فهرب الروم واعتصموا بمدينة باجة[236]، ولجأ البربر إلى إقليم بونة[237]، وآكتفى حسان بما ناله من الروم خلال هذه الحملة، فعاد إلى مدينة القيروان ليستعد للحملة الثانية[238].

وحسب خُطّة حسان بن النعمان فقد وقعت المعركة الثانية بين القوات العربية، وقوات البربر البتر، والذين كانوا تحت زعامة امرأة شهرت بالكاهنة وآسمها: دهيا أو دهيار بنت ماتية[239]، وصفها المؤرخون بأنها ملكة جبال أوراس، وكانت تتمتع بسطوة وسلطان واسعين، حتى قيل لحسان بن النعمان «إن قتلتها دان لك المغرب كله[240]».

وقد استعدت الكاهنة للقاء القوات العربية، وآتخذت مجموعة من الإجراءات بقصد عرقلة تقدمها، وحاولت - وبأساليب شتى - حرمان الجيش العربي من مصادر التموين والتزود بالأقوات، فخرّبت بعض القرى، ودمّرت حصن باغية[241]، لتمنع حسّان من الاعتصام به، وتجنب حسان إجراءات الكاهنة، فتقدم بقواته، وعسكر على أحد روافد نهر مسكيانة[242]،

---

(236) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: السلاوي: 92.
(237) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: السلاوي: 92.
(238) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35.
(239) ابن خلدون: 6/ 109. وقد اختلف الباحثون في شأن الكاهنة، بل يميل بعضهم إلى إنكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب أخبارها من المسحة الأسطورية، ومن هؤلاء: ليبو الذي زعم أن الكاهنة ما هي إلاّ البطريق يوحنا (الذي دخل مدينة قرطاجنة بعد انتصار الكاهنة على حسّان) مؤكداً أن ذلك الرأي قال به نفر من أوثق العلماء ذكر منهم أوتر، وهذا مذهب لا يقل خيالاً أو خطأ عن الروايات الأخرى، فمن المعروف أن يوحنا بطريق رُومي حَمْلته مذكورة بوضوح في كتب المؤرخين العرب إلى جانب أخبار الكاهنة. وقد أكد فورنل أن ليبو اختلق على أوتر ذلك القول، إذ لم يقل الرجل منه شيئاً. ينظر: حسين مؤنس: 242، سعد زغلول: 1/ 217.
(240) المالكي: 32. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: الدباغ: 1/ 61. وابن عبد الحكم: 270 «يسمّيها ملكة البربر». ابن خلدون: 6/ 170.
(241) الرقيق القيرواني: 255. الدباغ: 1/ 61.
(242) الرقيق القيرواني: 56. الدباغ: 1/ 62. ابن عذاري: 1/ 36.

يسمّيه ابن الأثير، نهر نيني[243]، وزحفت الكاهنة، فعسكرت على قربة منه، ولا نعرف الكثير عن المقدمات التي سبقت القتال، واكتفى المؤرخون بالقول إن قوات حسّان كانت تعسكر في أعلى الوادي[244]، مما يحقق لها موقعاً استراتيجيّاً أفضل[245]، ومع ذلك فقد انتهت المعركة لصالح الكاهنة، واضطر حسان أمام ضغط قواتها إلى الانسحاب المدبر من الميدان باتجاه برقة، وعسكر في منطقة سُمّيت بعد ذلك بقصور حسان[246]، لتستحوذ الكاهنة على مقدرات المغرب العربي، ولسنوات خمس[247]، كانت شديدة الوطأة على حسان وقواته التي ظلت تنتظر الإمدادات، وأوامر الخليفة لإعادة الكَرّة على قوات الكاهنة وإعادة السلطان العربي على البلاد.

وبانسحاب القوات العربية، فقدت الخلافة، وللمرة الثالثة جميع الأراضي المحررة سابقاً[248]، وأصبح الحكم للكاهنة وقواتها، ولا نعرف الكثير عن أحوال المغرب العربي خلال فترة حُكم الكاهنة، وقصور المصادر في هذا الجانب أمر طبيعي كون الأمور في المغرب لا تعنيهم إلاّ بمقدار فاعلية القوات العربية. «ورغم أنهم لا يشيرون إلى أي علاقة ودّية بينها وبين العرب، فالمفهوم أن الكاهنة ـ مثلها مثل كسيلة ـ كانت لا تكنّ للعرب الحقد أو الضغينة، إن لم نقل إنها كانت تحترمهم وتعرف قدرهم في قرارة نفسها على الأقل»[249] فقد فعلت كما فعل كسيلة عقب انتصاره على عقبة بن

---

(243) الكامل: 4/ 369 و370. وأطلق عليه بعد المعركة بنهر البلاء أو وادي العذاري نسبة إلى كثرة الشهداء الذين سقطوا في هذه الواقعة. ينظر: ابن عبد الحكم: 270. الرقيق القيرواني: 57.

(244) الرقيق القيرواني: 56. والنص: «. . . وكان هو يشرب من أعلى النهر، وهي من أسفله» ابن عذاري: 1/ 36.

(245) سعد زغلول: 1/ 219.

(246) الرقيق القيرواني: 57. ابن الأثير: 4/ 370.

(247) عند المالكي: 1/ 57؛ والدباغ: 1/ 63. «ثلاث سنين».

(248) فيما عدا انطابلس (برقة) ولوبية ومراقية إلى حد أجدابية. ينظر: ابن عبد الحكم: 270.

(249) سعد زغلول: 1/ 220.

نافع الفهري، فأطلقت أسرى العرب وأعادتهم إلى حسّان، وكانوا ثمانين أسيراً[250]، واستبقت منهم خالد بن يزيد العبسي فاتخذته مستشاراً لها بعد أن تبنّته على طريقة البربر في المؤاخاة[251].

وكل ما يُنسَب إلى الكاهنة خلال فترة سيطرتها على المغرب هو أعمال التدمير التي قامت بها في البلاد، فالمصادر التاريخية تشير إلى أنها أمرت أنصارها بتخريب المزارع والحقول، وتهديم المدن والقلاع، كي تمنع القوات العربية من التفكير في العودة إلى البلاد ويُنسب إليها في هذا الصدد، مقولة نصها: «إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي، فما نرى لكم إلاّ خراب أفريقية، حتى ييأسوا منها ويقلّ طمعهم فيها.»[252] وعلى هذا الأساس يُقال إن أنصار الكاهنة دمّروا كل ما صادفوه من طرابلس حتى طنجة[253]. والحقيقة أن في المقولة المنسوبة إلى الكاهنة نظرٌ، فلو صحّت هذه المقولة لخرّبت الكاهنة أول ما خربت مدينة القيروان، رمز التواجد العربي الإسلامي في بلاد المغرب، ثم كيف تعهد إلى تخريب المزروعات والحقول، وأنصارها يعتمدون أساساً على تربية الأغنام والمواشي، وكيف تكون الكاهنة جاهلة بهدف العرب ولديها خالد بن يزيد العبسي؟ ولكننا لا نستبعد قيام الكاهنة بهدم بعض الحصون والقُرى، خصوصاً عندما علمت بزحف حسّان بن النعمان نحوها وكان ذلك عملاً استثنائياً تطلّبته ظروف المرحلة.

---

(250) الرقيق القيرواني: 57. المالكي: 1/ 57. ابن عذاري: 1/ 36. السلاوي: 1/ 93.

(251) عمدت إلى دقيق شعير مفلق، فأمرت به، فَلُتَّ بزيت، ثم دعت خالد بن يزيد وابنين لها فأمرتهم فأكل ثلاثتهم على ثديها وقالت لهم: «أنتم الآن قد صرتم إخوة»، وذلك عند البربر من أعظم العهود. ينظر: المالكي: 1/ 33. الدباغ: 1/ 63. وقد ورد اسم خالد بن يزيد عند الرقيق القيرواني: 58، تارة: يزيد بن خالد، ومثله عند الدباغ: 1/ 63. وتارة أخرى كما هو مثبت.

(252) الرقيق القيرواني: 61. وينظر: ابن الأثير: 4/ 371. ابن عذاري: 1/ 36.

(253) الرقيق القيرواني: 61. ابن عذاري: 1/ 36 ابن خلدون: 6/ 109. السلاوي: 1/ 93.

القضاء على الكاهنة

عندما أكمل حسَّان بن النعمان استعداداته، زحف بقواته سنة 78هـ سالكاً الطريق الساحلي حتى مدينة قابس، وقرب هذه المدينة لقي حسَّان قوات الكاهنة ودارت بين الطرفين معركة انجلت عن ارتداد الكاهنة إلى قلعة بشر، ومنها مضت بفلول قواتها تريد جبال أوراس، وحسّان في أثرها، وفي أوراس كانت المعركة الفاصلة انتهت بتدمير قوات الكاهنة، ومقتلها في مكان أُطلق عليها أسم بئر الكاهنة[254].

وكانت الكاهنة قد أطلقت سراح يزيد بن خالد قبل وقوع المعركة الفاصلة، ووجهته مع ولديها إلى حسان بن النعمان، وطلبت منه أن يأخذ لهما الأمان منه[255]، وقيل في تفسير ذلك إن الكاهنة كانت تتنبأ بمصيرها المحتوم في هذه المعركة[256]، فآثرت سلامة ولديها، وأوصت خالد بن يزيد بهما خيراً، وقد أكرم حسَّان وفادتهما، وتبوّآ لديه مكاناً مرموقاً فعقد لهما على أبناء قومها من البربر الذين أسلموا[257]، وعيَّن أحدهما والياً عليهم، وكان لهما بعد ذلك مشاركة في حروب التحرير العربية في المغرب.

استعادة قرطاجنة من الروم البيزنطيين:

ترك حسان بعد تحرير قرطاجنة سنة 74هـ/ 693م حامية عربية لضبط أمور المدينة، فلما انسحب من المغرب إثر خسارته المعركة مع الكاهنة،

---

(254) هذه رواية الدباغ: 1/ 65 ـ 67. وينظر: الرقيق القيرواني: 61 و62. ابن الأثير: 4/ 371. ابن عذاري: 1/ 36 و37.
ملخص ما فيها: خرج من قابس. واتخذ الطريق الصحراوي القصير عبْر بلاد الجريد فأخضع قفصة ثم قسطيلية ونفزاوة ثم زحفت إليه الكاهنة ووقع بينهما اللقاء الحاسم.

(255) الرقيق القيرواني: 62 و63. المالكي: 1/ 36. الدباغ: 1/ 66.

(256) الرقيق القيرواني: 62. المالكي: 1/ 36. ابن عذاري: 1/ 37 و38. ابن الأثير: 4/ 371 و372.

(257) الرقيق القيرواني: 64. الدباغ: 1/ 67. ابن عذاري: 1/ 38.

استغل الروم هذا الظرف، وجهزوا حملة بَحْرية قادها البطريق يوحنّا، هاجمت المدينة وأبادت حاميتها الصغيرة والتي فضلت الاستشهاد دفاعاً عن المدينة، على الانسحاب منها، وبذا سقطت قرطاجنة مرة أخرى بيد الروم البيزنطيين(258).

وتطلّب الأمر من حسّان بعد القضاء على مقاومة الكاهنة المسير نحو مدينة قرطاجنة لطرد الروم منها، ولم تصمد المدينة أمامه طويلاً، فدخلها عنوة بعد أن كبّد القوات الرومية خسائر جسيمة، وبعد أن ولّى الأحياء منهم مدبرين بمراكبهم إلى جزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى(259).

وإذا كانت بعض النصوص تشير إلى أن حسّان بن النعمان عمد إلى تخريب المدينة بعد دخولها، وقطع مصادر المياه عنها ليمنع الروم وغيرهم من العودة إليها(260)، فيبدو أن المقصود تحصينات المدينة وأسوارها، وليست قصبتها، وهذه الإجراءات كانت تُعَدّ من بين الإجراءات الوقائية والضرورية في هذه المرحلة، لحرمان الغزاة الروم من أي ملجأ حصين قد يلتجئون إليه في المستقبل.

وبقضاء حسان على القوتين الكبيرتين في المغرب، الروم في قرطاجنة، والبربر البتر في جبال أوراس، تهيأت له فسحة من الوقت كرّسها لتنظيم شؤون الولاية وإنجاز مهمات عديدة أهمها:

تعمير مدينة القيروان، وتنظيم إدارتها(261)، وأولى حسّان مسجدها الجامع عناية كبيرة، فزاد في بنائه وزيّنه بساريتين حمراوتين غاية في الروعة نقلت إليه من آثار مكان كان في المنطقة(262).

---

(258) حسين مؤنس: 54. سالم: 2/ 248.

(259) يخلط المؤرخون بين تحرير قرطاجنة الأول سنة 74هـ. وبين استعادتها من الروم في سنة 78هـ. ينظر مثلاً: الدباغ: 1/ 67 و68. ابن عذاري: 1/ 34.

(260) المالكي: 1/ 31. الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35.

(261) الدباغ: 1/ 69.

(262) البكري: 12.

وإليه يعود الفضل باستحداث الدواوين في المغرب[263]، وكانت من ضرورات المرحلة، وإذا كنّا لا نعرف عدد الدواوين التي استحدثت، فالغالب أن ديوان الخراج، والجند، والرسائل كان في مقدمتها، لحاجة الولاية الملحّة إلى هذه الدواوين، خصوصاً بعد إقرار حسّان للخراج على الروم، ونصارى البربر، وإقرار حنش بن عبد الله الصنعاني على الصدقات يجمعها من المسلمين[264]، وحاجة الوُلاة إلى من يضبط ويحصي الأموال المستحصَلة.

وديوان الجند، له أهميته بعد أن دخلت أعداد كبيرة من العرب البربر في الإسلام، وأنتظم منهم أثنا عشر ألف رجل في صفوف القوات العربية لمقاتلة الروم ومن يكفر من البربر[265]، وقسّمهم إلى فرقتين، كل فرقة تضم ستة آلاف مقاتل، وجعل على كل فرقة ولداً من أولاد الكاهنة[266]، ولم يكتفِ حسّان بهذا بل بث بينهم ثلاثة عشر رجلاً من أصحابه يعلّمونهم أصول الشريعة واللغة العربية[267]. ومن هنا بدأت أهمية إنشاء ديوان الجند، لتدوين أسماء المقاتلين وأنسابهم إضافة إلى أعطياتهم وما يتعلق بالشؤون العسكرية من أمور.

ولا تخفى بعد هذا أهمية ديوان الرسائل والكتب بعد أن تمكّن حسّان من إقرار السلام العربي في المغرب، وثبّت أركان السلطة المركزية في نواحيه.

وأحتفظ حسّان بدار السكّة التي كانت موجودة في مدينة قرطاجنة، فضرب النقود حسب سياسة الدولة المركزية، وأدخل تعديلات على رسم

---

(263) الرقيق القيرواني: 64. ابن خلدون: 6/ 110.
(264) الدباغ: 1/ 69.
(265) الرقيق القيرواني: 64. ابن الأثير: 4/ 372. ابن خلدون: 6/ 109.
(266) الرقيق القيرواني: 64. ابن الأثير: 4/ 372. ابن عذاري: 1/ 38.
(267) نص عبيد الله بن صالح: 323.

الطراز الرومي من النقود، فجعل على وجه الدينار صورة الخليفة عبد الملك بن مروان ووَليّ عهده الوليد، بدلاً من صورة القيصر ووليّ عهده، وعبارة: «بسم الله الرحمن الإله الأحد»، وعلى ظهره صورة صولجان بدلاً من الصليب البيزنطي مع عبارات باللاتينية تُعبِّر عن: «وحده لا شريك له، ولا مثيل له» مع ذكر تاريخ الضرب ومكانه[268].

ويُعَدّ بناء تونس[269] سنة 84هـ/ 703م من أجَلّ أعمال حسَّان، فإذا كان لعقبة بن نافع فضل السبق في بناء القيروان، أول مدينة قامت على العروبة والإسلام، فإن لحسان فضل إكمال ذلك العمل المجيد، فالقيروان مدينة برية وقامت مدينة تونس لتكون منفذاً للمغرب على البحر، ولتحلّ محلّ قرطاجنة تكون «قوة وعُدّة للمسلمين إلى آخر الدهر، يُصنع بها المراكب، ويُجاهد الروم في البر والبحر وأن يُغَار فيها على ساحل الروم.»[270]

وقامت مدينة تونس في موضع قرية يُقال لها ترشيش على مسافة أثني عشر ميلاً شرق مدينة قرطاجنة[271]، وفي ترشيش، أسس حسَّان دار صناعة السفن، وجعل رادس (ادس) مرسى[272]. واستعان في إنجاز مشاريعه بأعداد كبيرة من البربر لقطع الأخشاب، وبألف عائلة قبطية وصلت إليه من مصر للعمل في دار الصناعة[273].

ولمّا كان موضع تونس غير مفتوح على البحر مثل قرطاجنة «تقع على لسان يكوّن شبه جزيرة محصورة بين السبخة (سبخة الريانة) شمالاً والبحيرة (بحيرة تونس) جنوباً، بينما تقع تونس إلى الداخل غرب البحيرة التي تتصل

---

(268) سعد زغلول: 1/ 230.
(269) عن أصل التسمية. ينظر: البكري: 38. الاستبصار: 121.
(270) البكري: 38. وينظر: الرقيق القيرواني: 66. رحلة التجاني: 6 و7.
(271) البكري: 28. سالم: 2/ 249.
(272) البكري: 3. حسين مؤنس: 262.
(273) البكري: 38 و39.

بالبحر من جهة الشرق، حيث يقع مرسى رادس. ولما كانت البحيرة ضحلة لا تسمح بسير المراكب الحربية، وَجَب حفر قناة في وسطها تصل ما بين دار الصناعة في تونس والميناء أو المرسى في رادس»[274]. وإلى هذا العمل يشير الدباغ عندما قال إن حسَّان أخرق البحر إليها وجعلها دار صناعة وأخرج إليها الماء فأجراه من البحر إليها[275].

وأهتم حسَّان بعمارة المدينة فأنشأ بها مسجداً جامعاً، وداراً للإمارة ومعسكراً للقوات البرية والبحرية[276]، وقُدِّر لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور المغرب بعد ذلك بثلاثين سنة، فقد نمت وأتسعت في ولاية عُبيد الله بن الحبحاب، فأهتم بدار صناعة السفن، وبنى بها المسجد الجامع المعروف بالزيتونة[277].

وبهذا استطاع حسَّان بن النعمان تأسيس مدينة ثانية في المغرب، فإذا كانت مدينة القيروان مركزاً للقوات العربية ومحرساً لبلاد الداخل، فقد كانت تونس رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء للمغرب حل مكان مدينة قرطاجنة[278].

وبقيام هذه المدينة حِيل بين الروم وبلاد المغرب، فلم يجازفوا في النزول إلى أرضه، فأَمِن العرب شرَّهم، وقَلَبوا الآية عندما بدأوا من تونس يجهّزون الحملات البحرية المتوالية بأتجاه جزر البحر المتوسط ومواطن الروم الأخرى.

وهكذا كانت أعمال حسَّان العديدة مبعثَ أعتباره المحرِّر الحقيقي لبلاد المغرب[279].

---

(274) سعد زغلول: 1/ 233.
(275) معالم الإيمان: 1/ 68. وينظر: الرقيق القيرواني: 66. ابن أبي الدينار: 21.
(276) المالكي: 1/ 37. وينظر سالم: 2/ 249.
(277) ينظر ولاية ابن الحبحاب.
(278) حسين مؤنس: 262، 263.
(279) سعد زغلول: 1/ 228.

فحسان، قضى على قوة الروم البيزنطيين، وحرر قرطاجنة رمز كيانهم وتواجدهم في البلاد.

وتمكّن وبآقتدار عالٍ من القضاء على الكاهنة، وكَسْب أنصارها إلى جانبه عندما دخلوا الإسلام على يديه، وأصبحوا قوة فاعلة في صفوف القوات العربية.

ونقل العرب نقلة نوعية في مجالي الإدارة والتنظيم، فدوّن الدواوين وضرب النقود، وحدد علاقة الولاية مع من بقي من الروم والبربر على النصرانية، ففرض عليهم ما فرضه الإسلام من خراج وجزية، وأقرّ الصدقات على المسلمين، ونَسَب لأخذها التابعيَّ المشهور حنشاً الصنعانيّ[280].

ولكي ينهض بآقتصاديات البلاد، فقد أقطع لمن أسلم من قبائل البربر الأرضين[281] لاستغلالها في زراعة الغلال والمحاصيل المختلفة. وبهذا الإجراء حقق حسان هدفين هامين:

الأول: استقرار القبائل في مناطق معلومة للسلطة المركزية، ومرتبطة بها.

والثاني: تنمية الآقتصاد الوطني، عن طريق ما تنتجه هذه الأرضين من غلال ومحاصيل وما يقدمه مستغلّوها إلى خزينة الولاية من صدقة تزيد من مصادر خزينة الولاية المالية.

ولم تكن أهمية هذه النقلة في الترتيبات المذكورة آنفاً، وإنما أهميتها في تمكين الدولة من إحاطة ما تمَّ تحريره، بحدود علاقتها امتداد العروبة والإسلام، بحيث لم نرَ بعد هذا التاريخ ردة تمكّنت من الانقلاب على هذا الواقع.

---

(280) الدباغ: 1/ 68.

(281) المالكي: 1/ 36 والنص: «... ومن ذلك صارت الخطط للبربر في أفريقية فكان ـ يعني حسّاناً ـ يُقسّم الفيْءَ بينهم، والأرض، وحَسُنت طاعتهم، فدانت له أفريقية» وينظر: الدباغ: 1/ 67.

عاد حسّان بن النعمان إلى المشرق سنة 86هـ[282] فلقي الخليفة الوليد بن عبد الملك وأوقفه على ما تمّ إنجازه في بلاد المغرب، ويبدو أن حساناً كان قد بلغ من العمر ما منعه من العودة إلى ولاية المغرب حتى عُرِف «بالشيخ الأمين»[283] فطلب الاستعفاء من الخليفة[284]، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بقليل[285].

https://www.noor-book.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D9%81%D8%AA%D9%88%D8%AD%D8%A7%D8%AA-%D8%AD%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A8%D9%84%D8%A7%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A-2014-2015-pdf

http://dspace.univ-bouira.dz:8080/jspui/bitstream/123456789/2212/1/%D8%B1%D9%85%D8%B6%D8%A7%D9%86%D9%8A%20%D8%AD%D9%83%DB%8C%D9%85%D8%A9-%20%20%D8%B4%D8%B1%DB%8C%D9%82%D9%8A%20%D8%B5%D8%A8%D8%B1%DB%8C%D9%86%D8%A9%20%D9%81%D8%AA%D9%88%D8%AD%D8%A7%D8%AA%20%D8%AD%D8%B3%D8%A7%D9%86%20%D8%A8%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A%20%D9%81%D9%8A%20%D8%A8%D9%84%D8%A7%D8%AF%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A2014-2015.pdf

المحاضرة الرابعة

عصر الولاة في المغرب العربي

عصر الولاة: مصطلح يُراد به بالنسبة لكل قطر من الأقطار التي حررها العرب أو فتحوها، الفترة التي بين تمام التحرير أو الفتح وقيام أول الدول المحلية المستقلة في القطر، أو في ناحية منه، وتَوقّف دار الخلافة عن إرسال وُلاتها إلى هذا القطر أو تلك الناحية المستقلة، أي «انقطاع التبعية المباشرة لدولة الخلافة، وبداية الاستقلال وظهور الشخصية المحلية للإقليم في نطاق العالم الإسلامي أيّاً كانت صورة ذلك الاستقلال ودرجته.»[1]

وتلعب ظروف عديدة في إنهاء عصر الولاة، وتختلف من إقليم إلى آخر وغالباً ما كان عصر الولاة، ينتهي بتغلّب شخصية طموحة على زمام الأمور في البلاد البعيدة، فيبدأ بتأسيس كيان له يعتمد بالدرجة الأولى على قدراته الذاتية في تنميته وحمايته. وقد يكون هذا الكيان مستقلاً تام الاستقلال، كما هو الحال بالنسبة للدولة الأموية في الأندلس سنة 138هـ/ 756م، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 172هـ/ 788م. وقد يكون مرتبطاً بسياسة الدولة المركزية، مع تمتعه باستقلال ذاتيّ واسع، وتخويل

---

(1) حسين مؤنس: التنظيم الإداري والمالي لأفريقية والمغرب خلال عصر الولاة، بحث منشور في مجلة كلية الأدب، جامعة الكويت، العدد الأول ص: 57.

شامل في إدارة كيانه، كدولة الأغالبة القائمة سنة 184هـ/ 800م[2]، والذي يُعتبَر قيامها نهاية لعصر الولاة في بلاد المغرب[3].

وقد مرت بعصر الولاة جميع الأقاليم التي حررها العرب، خلال القرن الأول الهجري، مع اختلافات لا بدَّ منها في نوع التبعية التي كانت تربط الأقاليم المحرَّرة بالسلطة المركزية، فبلاد الشام مثلاً عَرفت عصر الولاة طوال فترة الخلفاء الراشدين، ثم أصبحت بلاد الشام مركز الدولة العربية، والحجاز إقليم من أقاليم الدولة التابعة له، ولكن ذلك لم يُخرج بلاد الشام عن أن تكون إقليماً من أقاليم الدولة العربية. ثم عاد عصر الولاة إلى الظهور في الشام بقيام الدولة العباسية سنة 132هـ. ومن هنا فإن هناك اختلافاً بين طبيعة عصر الولاة في بلاد الشام، وطبيعته في بلاد مصر مثلاً[4]. «ولكنه في كل بلد من البلاد التي ذكرناها دور طبيعيّ في تاريخ معظم بلاد الإسلام، وهو في العادة عصر الدخول في الإسلام واستعراب، وتَحوُّل المجتمع إلى مجتمع إسلاميّ أو إسلاميّ عربيّ، في روحه وثقافته واتجاهه في الحياة.»[5]

وقد تناوب على حكم المغرب العربي خلال هذه الفترة (97هـ ـ 184م) وعلى مدى الدولتين الأموية والعباسية، وحتى قيام دولة الأغالبة سنة 184هـ ـ 800م) إحدى وعشرون والياً، وكان من أبرز سماته:

1 ـ لا توجد قاعدة ثابتة في تعيين الولاة، فتارة يُعيَّن الوالي من قِبَل الخليفة مباشرة، وتارة أخرى يعيَّن من قِبَل والي مصر، أو قد يصطلح كبار رجال الولاية على تنصيب أحدهم والٍ لفترة معلومة خصوصاً بعد

---

(2) حسين مؤنس: المرجع السابق: 72 ـ 74.

(3) سبقت دولة الأغالبة دولٌ أخرى في الاستقلال عن السلطة المركزية واعتُبِرت خارجة عن حضيرة الطاعة منها مثلاً: دويلة في سجلماسة، ودويلة في تاهرت، ودويلة الأدارسة في وليلي ثم في فاس بعد ذلك.، تنظر الفقرة رقم (5) أدناه، الفصل الثاني.

(4) حسين مؤنس: المرجع السابق: 73.

(5) حسين مؤنس: المرجع السابق: 73.

فترات الاضطراب، أو قد تُغتصَب الولاية اغتصاباً، كما فعل عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة 127هـ.

2 ـ تراوحت سياسة الولاة بين اللين وسيادة العدالة والمساواة إلى سياسة الشدة، والتعسف مع العرب البربر.

3 ـ النشاط الواسع للحملات البحرية بآتجاه جزر البحر المتوسط، صقلية، وسردينيا وكورسيكا وغيرها من الجزر.

4 ـ انتشار الأفكار الخارجية الصفرية والأباضية، وذلك إلى كثرة الفتن والحروب بين دعاة هذه الأفكار والسلطة المركزية المتمثلة بسلطة الولاة.

5 ـ ونتيجة لما سبق فقد ظهرت الكيانات المستقلة، فقامت دولة الصفرية في سجلماسة سنة 140هـ/ 757م، ودولة الأباضية في تاهرت وما حولها سنة 160هـ/ 781م واستغل إدريس الأول بن عبد الله حالة الفوضى والاضطرابات فأسس سنة 172هـ/ 788م دولته في مدينة وليلي أولاً، ثم فاس في المغرب الأقصى.

6 ـ وثمة ظاهرة أخرى استجدت زمن وُلاة الدولة العباسية، تلك هي ظاهرة تمرّد الجند الخراساني، وعدم انضباطهم، ومحاولاتهم لإثارة القلاقل والاضطراب في بلاد المغرب، من خلال مساندتهم للمتمردين على السلطة المركزية.

وأوّل هؤلاء الولاة:

ـ محمد بن يزيد القرشي[6] (97 ـ 100هـ/ 715 ـ 718م):

قدمه الخليفة سليمان، وقد نعمت بلاد المغرب العربي في عهده بالأمن والاستقرار، وسيادة العدالة[7]. وكانت أعماله محصورة في إرسال السرايا

---

(6) في تاريخ أفريقية والمغرب، الرقيق القيرواني: 93: «سنة 99هـ».

(7) الرقيق القيرواني: 93. ابن عذاري: 1/ 47.

إلى المناطق الداخلية من المغرب الأقصى[8]، ومناطق أخرى فما أصاب من الغنائم قسمه بين المقاتلين[9]، وكانت الأندلس تابعة لولاية المغرب، فلمّا قُتِل عبد العزيز بن موسى بن نصير أواخر سنة 97هـ/ 716م أو بداية سنة 98هـ/ 717م أرسل محمد بن يزيد هذا، الحُرَّ بنَ عبد الرحمن الثقفي والياً عليها[10].

وكان لسياسة ٱبن يزيد وعدالته أثر في دخول أفواج جديدة في الإسلام، وجنوح القبائل العاصية على تأدية فروض الطاعة والولاء[11].

وظل محمد بن يزيد والياً على المغرب حتى وفاة الخليفة سليمان، وتولية الخليفة عمر بن عبد العزيز، فاختار لولايتها تابعيّاً مشهوراً هو:

ـ إسماعيل بن عبد الله حفيد أبي المهاجر دينار[12] (100 ـ 102هـ/ 718 ـ 720م):

وصفه الرقيق القيرواني بقوله: «كان خير والٍ، وخير أمير»[13]، وكان

---

(8) الرقيق القيرواني: 96. ابن عذاري: 1/ 47.

(9) الرقيق القيرواني: 96، والنص: «فما أصابه خمسة عليهم ثم قسّم الخمس أيضاً» وينظر: ابن عذاري: 1/ 47.

(10) أخبار مجموعة: 22.

(11) سالم: 2/ 289.

(12) تمّ اختيار إسماعيل بن عبد الله لِمَا عرفه الخليفة عمر بن عبد العزيز فيه من التقوى التي تبعث على الشجاعة في تقرير الصدق وقول الحق عند مواجهة أُولي الأمر، فقد جرت العادة عند ورود جبايات الأمصار إلى دمشق، على أن يأتي مع جباية كل بلد وفد من أهله يتكوّن من عشرة رجال من الأعيان وكبار القادة، وكان على هؤلاء أن يُقْسِموا بأن كل دينار وكل درهم من تلك الجباية أُخِذ بحقه. وعلى أيام سليمان بن عبد الملك أتى وفد أفريقية بالخراج، وحلف ثمانية من العشرة بصحة جمع المال، ورفض إسماعيل بن عبد الله، وتبعه السمح بن مالك، وأعجب عمر بن عبد العزيز الذي كان حاضراً بالرجلين، فلما صارت له الخلافة عَيّن إسماعيل على المغرب والسمح على الأندلس. ينظر: أخبار مجموعة 22 و23. سعد زغلول: 1/ 262.

(13) الرقيق القيرواني: 97. وينظر: ابن عبد الحكم: 287. وابن عذاري: 1/ 48.

جُلُّ اهتمامه مُنصبّاً على نشر الإسلام والعروبة بين القبائل التي لم تدخل الإسلام بعد، فأسلمت على يديه قبائل عديدة[14]، وأرسل إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز عشرة من كبار التابعين[15]، انتشروا في مناطق مختلفة لتعليم الداخلين في الإسلام، ما يجب معرفته من اللغة العربية لقراءة القرآن الكريم، وإيقاف المسلمين الجدد على ما حرّم الله عليهم، وأحلّه لهم. فقد كانت الخَمْر «بأفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون، فبيّنوا تحريمها»[16].

والحقيقة أن ولايتَيْ محمد بن يزيد القرشي، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، تُعتبَران من سنوات عصر الولاة المتميزة بالهدوء والاستقرار وإعمام العدالة بين سكان المغرب العربي، فقد أُخِذت الجبايات بوجوهها الشرعية الحقة، وعمل الواليان طوال سنوات ولايتهما على نشر الإسلام بين القبائل التي لم تسلم بعد، ورسّخا مبادئه وأصوله بين تلك القبائل التي سبق إسلامها، وعَمِلا جاهدَيْن على تعليم سكان المغرب المسلمين العربية رسماً وقراءة.

ويكاد يُجمِع المؤرخون[17] على أنه بوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 101هـ/ 719م. تبدأ سياسة جديدة في المغرب العربي تقوم أساساً على اعتماد الشدة، فعندما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، عَزَل إسماعيل بن عبد الله عن ولاية المغرب العربي وأقرّ بدلاً منه.

ـ يزيد بن أبي مسلم (102هـ/ 720م):

ويُعَدّ تعيين ابن أبي مسلم انقلاباً في سياسة الدولة الأموية، فقد لُقِنّ

---

(14) ابن عبد الحكم: 287 والنص: «ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم»، الرقيق القيرواني: 97. ابن الأثير: 5/ 23. ابن عذاري: 1/ 48.

(15) ينظر الفصل الخامس بانتشار الإسلام والعروبة.

(16) ابن عذاري: 1/ 48.

(17) ابن الأثير: الكامل: 5/ 268. سعد زغلول: 266. سالم: 2/ 293.

الوالي المذكور خلال فترة خدماته مع الحجاج بن يوسف - كان كاتبه وصاحب شرطته - على سياسة الشدة والعنف، فحال ما وطأت قدماه مدينة القيروان، بدأ بإجراءات لم يسبق أن اعتمدها والٍ من ولاة المغرب العربي قبله، وقد أصابت تلك الإجراءات عدداً من السكان[18]، وبعض الولاة السابقين[19]. وإضافة إلى ذلك فقد عمد على وشم حرسه بكتابة أسم الرجل في يده اليمنى، وكتابة «حرسي» في يده اليسرى على ما كانت تفعله الروم بحرسها[20]، فأنِفَ الحرس من ذلك، وكان معظمهم من البربر البتر، فدب بعضهم إلى بعض وأتفقوا على الخلاص منه، فقتلوه بعد أشهر قليلة من توليته الولاية[21].

وأتفق الناس على تولية محمد بن أوس قائد الأسطول لإدارة شؤون الولاية، ولحين ورود قرار دار الخلافة[22].

وقد تنبّه الخليفة يزيد إلى سلبيات سياسة الشدة والعنف، وحاول إصلاح الأمور، فأنتدب لولاية المغرب شخصية ذات كفاءة وقدرات عالية في الشؤون الإدارية، لإصلاح ما أفسده يزيد بن أبي مسلم، ولامتصاص نقمة العامة، وإقرار النظام كما يجب، ذلك هو بِشْر بن صفوان الكلبي والي مصر.

https://www.noor-book.com/tag/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%B9%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%A9

المحاضرة الخامسة

الأدارسة تأسيس دولتهم ، أسبابه وأهميته

أصل الدولة:

سُمّيَت دولة الأدارسة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي جاء إلى المغرب الأقصى في أعقاب فشل إحدى الحركات المناوئة التي اشترك فيها ضد الدولة العباسية في عهد الخليفة الهادي سنة 169هـ/ 786م.

وقاد هذه الحركة التي قام بها الفرع الحَسَنيّ من العلويين، الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي ثار على عامل العباسيين في المدينة المنوّرة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله، لسوء معاملته لبعض أفراد الأسرة العلوية. وقد تغلب الثوار على عامل المدينة، وبويع الحسين بن علي بالخلافة في مسجد الرسول ﷺ. وأقام الحسين مدة يسيرة في المدينة، ثم انتقل إلى مكة، ولما سمع الخليفة الهادي بخبر هذه الحركة، كتب إلى أحد قادته، محمد بن سليمان بن علي، الذي كان قد قَدِم حاجّاً إلى مكة مع بعض رجاله، يأمره بحرب الحسين بن علي. وعند وصوله إلى قرب مكة، انضم إليه أنصار العباسيين من القواد والموالي الذين جاؤوا للحج.

معركة فخ:

وقد حدثت معركة فاصلة بين الطرفين في مكان يُسمّى فخّاً، وهو وادٍ

في طريق مكة، يبعد عنها نحو ستة أميال، انتهت بهزيمة الحسنيين، ومقتل عدد كبير منهم، وكان إدريس بن عبد الله بن الحسن، وأخوه يحيى، ضمن الأشخاص القلائل الذين استطاعوا النجاة من المعركة، حيث خرجا من الحجاز متخفين بين قوافل الحُجّاج الراجعين بعد انتهاء موسم الحج[1]. وقد اتخذ كلٌ من الأخوين طريقاً خاصّاً به، فتوجّه يحيى بن عبد الله نحو المشرق، حيث نجح في الحصول على بعض الأنصار المؤيدين له، ولكن الخليفة الرشيد استطاع أن يتخلص منه فيما بعد. أما إدريس بن عبد الله، فقد كان أكثر توفيقاً من أخيه يحيى، فاستطاع أن يفرّ إلى المغرب الأقصى، حيث نجح في تأسيس دولة جديدة تُعرَف بالأدارسة.

هروب إدريس بن عبد الله إلى المغرب:

هناك روايات متعددة عن كيفية هروب إدريس بن عبد الله إلى المغرب، ولكن الخطوط الرئيسة لهذه الروايات متشابهة، وتختلف فقط في التفاصيل[2]، فقد توجّه إلى مصر بصحبة أحد مواليه، راشد، الذي اتصف بالشجاعة ورجاحة العقل. ويقال إن أصل هذا المولى كان من شمال أفريقيا. وقد نال إدريس وراشد في مصر مساعدة أحد الأشخاص الموالين للعلويين،

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979: 6/ 90 ـ 93. ياقوت: معجم البلدان، بيروت، 1957: 4/ 237. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت: 1/ 83. وانظر أيضاً: إسماعيل العربي: دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 54 ـ 57.

(2) انظر: البكري: المغرب في ذلك بلاد أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص 118 ـ 119. الكامل في التاريخ: 6/ 293. البيان المغرب: 1/ 83. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، نشر: دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 16 ـ 19. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956. دار الكتاب العربي: 4/ 24.

وهو على الأغلب صاحب بريد مصر واضح، مولى صالح ابن الخليفة المنصور. ويشير الكندي صراحة إلى أن والي مصر العباسي، علي بن سليمان، أيضاً قد ساعد إدريس، وسهّل له عملية الخروج من مصر، وذلك بسبب استيائه من الخليفة العباسي في بغداد، وطموحه في نيل الخلافة لنفسه. وقد كان هذا الموقف السبب في عزله عن الولاية فيما بعد من قِبَل الرشيد[3].

ومهما يكن من أمرٍ، فقد استطاع إدريس وراشد أن يخرجا من مصر بأمان نتيجة تدبيرٍ واضح صاحب البريد، الذي حمل إدريس معه في طريق خاصة بالبريد، إلى ما بعد حدود مصر الغربية، بينما سافر راشد في الطريق المألوف إلى الغرب مع إحدى قوافل التجار، حيث اتفق الجميع على اللقاء في برقة[4]. وقد رجع واضح إلى مصر بعد أن اطمأن على سلامة إدريس وراشد، وأمدّهما بما يحتاجان إليه من مال ومتاع، ويبدو أن الطلب على الهاربين كان ما يزال شديداً، لذلك فقد عمد إدريس وراشد إلى التنكّر، حيث تخفّى الأول في زي خشن، وظهر بمظهر غلام يخدم راشداً. ويختلف المؤرخون أيضاً في الاتجاه الذي سلكه هذان الطريدان، فهناك من يشير إلى دخولهما إلى بلاد أفريقية والقيروان، وإقامتهما فيهما مدة من الزمن، ثم اتجها بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، فدخلا تلمسان واستراحا بها، ثم غادرا إلى طنجة[5]. أما البكري[6]، فيشير إلى عدم دخولهما إلى بلاد

---

(3) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص 132 ـ 132.

(4) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 119. البيان المغرب: 1/ 83. روض القرطاس، ص 18.

(5) المصدر نفسه، ص 19. ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 18.

(6) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 119. وانظر: مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958، ص 194.

أفريقية، وأنهما سارا في طريق جنوبي بأتجاه الغرب حتى أنتهيَا إلى طنجة.

وعلى الرغم من عدم وجود أدلة قوية لتأييد سلوكهما لأيٍّ من هذين الطريقين، يبدو أن طريق الجنوب كان أكثر أماناً لهما، حيث لم تكن هذه المناطق تخضع إلى سلطة أمير القيروان الفعلية، التابع أسميّاً للخلافة العباسية. وفضلاً عن أمان هذا الذي يمرّ بالجريد والزّاب، فهو أقصر من الناحية العملية للوصول إلى المغرب الأقصى، لهذا فمن المرجح أنهما سلكاه، ووصلا إلى تلمسان، ثم خرجا إلى ناحية الغرب، فعَبَرا نهر الملويّة، ودخلا بلاد السوس الأدنى، ثم وصلا إلى طنجة، التي كانت قاعدة بلاد المغرب الأقصى، فأقاما بها أياماً، ثم تحوّلا عنها إلى مدينة وليلي، وذلك بعد رحلة طويلة استغرقت نحو سنتين[7].

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن، هو: لماذا أتّجه إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وهل كان في نيّته أن يؤسس له دولة هناك؟ لا يمكن الجزم بما كان في نيّة إدريس أن يقوم به في المغرب، ولكن يبدو من المؤكد أنه كان على أطلاع واسع على مجريات الأحداث في هذه المنطقة النائية من الدولة العربية الإسلامية. وأن مولاه راشداً حدّثه عن الأحوال السياسية والاجتماعية في المغرب الأقصى. ومن المحتمل أن لهذا الأخير دوراً كبيراً في حمل سيّده على الأتّجاه إلى المغرب، وإقناعه أنه المكان الذي يوفّر الحماية، وربما السلطة له، وذلك بسبب بُعده عن قلب الدولة العباسية، وكثرة الحركات المناوئة التي قامت فيه، لا سيما حركات الخوارج. فمن الناحية العملية لم تكن سلطة العباسيين تمتد إلى أكثر من

---

(7) انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 118. روض القرطاس، ص 19. ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963: 1/ 54 (رواية أبي بكر محمد الرازي). وقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية: 1989: 2/ 426. العربي، دولة الأدارسة، ص 61 ـ 62.

ولاية أفريقية (وهي منطقة تونس الحالية)، حتى إن سلطتهم في هذه المنطقة كانت مزعزَعة إلى حد كبير.

لقد كانت الأحوال السياسية غير مستقرة في منطقة المغرب العربي منذ أواخر عهد الدولة الأموية، حيث قامت فيها حركات مناوئة عديدة انتهت بالفشل. ومع ذلك فقد ظلت سلطة الدولة المباشرة بعيدة عن هذه المناطق النائية، الأمر الذي دفع الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إلى التفكير في الاتجاه إلى هذا المكان، نظراً لملاحقته من قِبَل العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق سنة 132هـ/ 749م. ولكن ظروفاً أفضل كانت تنتظر عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس، لهذا فقد ترك المغرب، ونجح في تأسيس إمارة وراثية في الأندلس. أما إدريس بن عبد الله، فلم يفكّر في الأندلس التي استقرت فيها أمور الأمويين، بل ركّز اهتمامه على مناطق المغرب الأقصى، حيث وجد فيها أرضاً خصبة لإقامة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية. وقد ساعد على هذا، أن السكان المحليين كانوا يميلون بطبعهم إلى الاستقلال، الذي أَلِفوه منذ القدم. ولهذا فقد استطاع إدريس أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائراً على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة في المنطقة، فانضوت الحركة الاستقلالية التي كان ينادي بها هؤلاء تحت لوائه[8].

اختيار مدينة وليلي وبيعة إدريس:

كان السبب في توجّه إدريس إلى مدينة وليلي، أنها تتميز بموقع جيّد بين منطقة فاس ومكناس على طرف جبل زرهون، وهي من المدن الرومانية القديمة، وكانت تدعى فولوبيليس Volubilis، وتمتاز بخصب المنطقة المحيطة بها وكثرة مياهها وزروعها. أما جبل زرهون الذي يقع بالقرب من

(8) قارن: حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1973، ص 407.

مدينة مكناس، فقد كان يمتاز أيضاً بكثرة أشجاره وزروعه ومياهه العذبة المتدفقة، يضاف إلى ذلك، كانت هذه المنطقة موطناً لسكنى قبائل أوربة البرنسية التي تمتاز بالقوة والشجاعة. فأراد إدريس أن ينزل بقربها عسى أن ينال تأييدها لنصرة قضيته، وتأسيس دولته الفتية. وقد صحّ توقُّع إدريس، حيث تمتع بضيافة وكرم زعيم هذه القبيلة المدعو إسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، فأقام عنده بضعة أشهر، أظهر الأخير خلالها تعاطفاً كبيراً مع إدريس، الذي باح له بالتدريج بقضيته وأحقيته في الإمامة. وقد جمع هذا الزعيم قومه وإخوانه، وعَرّفهم بمكانة ومنزلة إدريس وفضله وقرابته من الرسول ﷺ، فرحّبوا به وأعربوا عن استعدادهم للانضمام تحت لوائه، فبايعوه في رمضان سنة 172هـ/ شباط 789م[9].

ويبدو أن وجود إدريس كان فرصة جيّدة لإسحق شخصيّاً، ولقبيلة أوربة بشكل عام، حيث إن نزول أحد العلويين بين ظهرانيهم يُعلي من شأنهم بين القبائل الأخرى، ويحقق لهم نوعاً من التفوق على زعماء هذه القبائل، لذلك فقد تسارعوا إلى بيعته للقيام بأمرهم، وتولي صلاتهم، وأحكامهم، وغزوهم، ثم فشت دعوة إدريس بين القبائل الأخرى في المنطقة، مثل: زناتة، وزواغة، ولماية، ولواتة، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، وهوارة وقد جاءته الوفود من المناطق المجاورة تعلن عن استعدادها للانضمام إليه، وتأييد دولته. وقد تجمع لدى إدريس قوة بشرية كبيرة استطاع أن ينظّم منها جيشاً قويّاً لمنازلة المناطق التي لم تخضع لسلطته، أو الأقاليم التي لم ترسخ فيها أقدام الإسلام بعد، والتي عُرِف أهلها بالزيغ والانحراف

(9) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 19 ـ 20. جذوة الاقتباس، ص 19 ـ 20. ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 190 ـ 191.

عن العقيدة الإسلامية. وهكذا ابتدأ العمل في تأسيس دولة الأدارسة في المغرب[10].

جهود إدريس الأول العسكرية في تثبيت الدولة:

توجهت العمليات العسكرية الأولى لإدريس الأول نحو بلاد تامسنا، التي تقع في البسيط الممتد من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع. فأفتتح مدينة شالة، وهي مدينة سلا القديمة، التي تقع قبالة مدينة الرباط الحالية على الضفة الثانية من مصب نهر أبي رقراق[11]. ثم أخضع كل حصون تامسنا التي تميّزت بوجود انحرافات خطيرة، تبنتها قبيلة برغواطة البربرية، التي سكنت في هذا الإقليم[12]. وقد أعقب ذلك بإخضاع مناطق تادلا التي تقع إلى الشرق من أغمات. وكان أكثر سكان هذه البلاد يدينون بالنصرانية واليهودية، والإسلام فيها قليل، فأعتنق عدد كبير منهم الإسلام على يديه[13].

ثم رجع إدريس إلى مدينة وليلي ليريح جيوشه، وذلك في ذي الحجة سنة 172هـ/ أيار 789م، فأقام بها إلى بداية سنة 173هـ/ 789م، ثم خرج مرّة أخرى لقتال السكان المحليين المتحصّنين بالمعاقل المنيعة بالقرب من منطقة فاس، وتطوان، لا سيما حصون فندلاوة، وصدينة، ومديونة، وفازاز. وقد عاد بعد ذلك إلى مقرّه في مدينة وليلي في جمادي الثانية 173هـ/ تشرين الأول 789م[14].

---

(10) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 430.

(11) انظر: (عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص 61، 140 ـ 142.

(12) عن برغواطة، راجع: البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 134 ـ 141.

(13) روض القرطاس، ص 20(علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص 13.

(14) روض القرطاس، ص 21. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 192.

لم يبقَ إدريس في وليلي فترة طويلة، بل خرج منها بعد نحو شهر واحد تقريباً متجهاً نحو تلمسان في المغرب الأوسط. وكان يسكن في هذه المدينة قبيلتان كبيرتان من زناتة، هما: مغراوة، وبني يفرن، ويبدو أن السيادة كانت للقبيلة الأولى، التي يتزعمها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري. وقد أعلن هذا الزعيم عن رغبته في الانضمام إلى بيعة إدريس، هو ومن معه من قبائل زناتة. فدخل إدريس الأول المدينة صلحاً، وأمّن أهلها، وبنى مسجدها في سنة 174هـ/ 790م، ثم عيَّن محمد بن خزر والياً عليها، ورجع إلى وليلي في شهر صفر 174هـ/ حزيران ـ تموز 790م[15].